الحلالُ الملعون

كعادتها كلَّ صباح، تظلّ تتململ في فراشها، وتعاند أشعَّة الشمس التي تداعب عينيها لتستيقظ، وهي لا تنفك تقاوم. تتقلّب يَمنةً ويسارًا، لكنها في النهاية لا تملك سوى الاستسلام. ترفع عنها غطاءَها في تكاسل. تفرك عينيها؛ لتزيح ما تبقى من آثار النوم عنها، تبدأ يومَها كالمعتاد، يستوقفها تأمُّل نفسها في المرآة قبل ذهابها لعملها. تتأكد من هندامها، وتُعدل النافر من خصلات شعرها الكستنائيّ المتهدِّل على كتفيها. تُنمق أحمر شفاهها، وترسل إلى نفسها قبلةً عبر الهواء استعدادًا للخروج.

ما إن تصل إلى عملها، حتى تُلقي - بابتسامتها المعهودة - التحيةَ على الجميع، تدبّ الحركة، تتعالى الأصوات، وتتحرك الأوراق في الأروقة كلها ذهابًا وإيابًا، تدخل بثينة كعادتها في منتصف اليوم متأفّفة ومتذمرةً من كثرة العمل والأخطاء، وتلعن اليوم الذي تزوَّجَتْ فيه، وكيف حوَّلها الزواجُ، وأتعبتها

المسؤوليات، لتلحقها تهانى بالرد مؤكدةً: «الجواز وسنينه». وتتبادلان الشكوى والامتعاض، ليقاطعهما الأستاذ باسم: عجيبة هي الحياة والبشر! يتزوجن ليتذمرن؛ ولو أن إحداهن تأخرت في الزواج، تجدها تضرب «أخماسًا في أسداس!».

انتبهتا لوجود ميرا. تحرجتا من الكلام، وراح الجميع يعمل في صمت. لم تُبدِ ميرا أيَّ انتباه، ولم تشارك في الحوار الذي ملَّتْ سماعَه، كما ملَّتْ كلماتِهم غيرَ المقصودة.

عاجلًا أو آجلًا، تنتهي ساعاتُ العمل التي تُمثل لميرا الحياة والتواصل، صوت البشر الذي يغطي على صمت وحدتها؛ فبمجرد وصولها إلى بيتها، تجلس وحيدة، كما اعتادت منذ رحيل والدتها قبل أكثر من عام.

أيام تمر من دون أن يرنّ هاتف المنزل معلنًا عن أحدٍ من أقاربها؛ ليسأل عنها. لم يعد الأمر كالسابق مع بنات عمّاتها أو خالاتها؛ فكلٌّ منهنَّ مشغولة بحياتها وأبنائها.

مشاهدة التلفاز والقراءة هما الأنيس والجليس لها؛ حتى يغالبها النعاس.

في هذه الليلة، كان الأمر مختلفًا. عاندها النوم، وظلت تحدّق في سقف غرفتها، تشغلها سنوات عمرها؛ التي تنسلُّ من بين يديها، وتسابقها نحو الأربعين. على الرغم من أنّها منشغلة بين دراستها وعملها؛ اللذَين لا تنفك عنهما، إلّا أن هذا لم يمنحها الأمانَ والاحتواءَ، ولم يشعرها بالاكتفاء، ليمنع احتياجها إلى الحبّ والارتباط، كلّ من حولها يتهامس بأنها تخطَّتْ ما يدعونه (سن الزواج)! وبعضهم من أصحاب النوايا الخبيثة يلوكون سيرتها، ويؤكدون تارةً أنها قد تكون مصابة بمرض عضال تخفيه، أو أنها (اللي حَبّ ولا نَال)، وآخرون يدَّعون أنها معقدة أو بها علة... إلخ.

ملَّت من الشائعاتِ والتهامسِ والأسئلةِ التي لا إجابة لها.

أصبحت تتوتر في التجمعات، تكره العزومات واللقاءات، ولاسيما مع القريبات والصديقات، لِمَا تقرؤه في عيونهم من تلميحاتٍ، وفي كلامهم من وجوبِ أنْ تُقدِّم الفتاة بعض التنازلات، وأن تقبل بعض التضحيات، من أجل أن ترتبط وتعيش بين أربعة جدران، بمسمَّى (مدام) فقط!

ميرا تحوي بين أضلعها قلبَ طفلةٍ، وجسدَ أنثى ناريًّا رشيقًا ممشوقَ القوام. لها عقل امرأة ناضجة؛ ومع هذا كله لم يحالفها الحظ لاستقطاب عريس! حصولها على هذه الشهادات كلها لم يكن لها بالمسوغ الكافي يومًا، بل يضيع أدراجَ الرياح أمام حملها شهادة (عانس)، مهما كانت الأسباب!

وفي لفتةٍ حانيةٍ من أكبر سيدات العائلة الموقرة في اجتماعهم السنويّ الكبير، مالت على أذنها لتهمس طالبةً منها أن تقابلها في اليوم التالي، لأنها تملك حلًّا سيُسعدها.

باتت ميرا تحلم بأن تهديها السيدة نازك هانم فارسَ أحلامٍ كأزواج بناتها؛ لتضع لمعاناتها مع المجتمع فاصلًا، وتبدأ من جديدٍ، جلست تتخيل نفسها مدام سليم أو بهيج؛ حتى غفت عيناها؛ لتستيقظ وقد انبعثت في عينيها أشعة الشمس؛ وامتدت لتداعب جسدها الجميل، لتنهض في نشاطٍ، وتنتظر مرور عقارب الساعة بين الحين والحين؛ حتى آن الأوانُ للموعد المرتقب، اندفعت بكل حماسة لموعدها، لتجد السيدة نازك في انتظارها وحدها، وبابتسامتها المعهودة ألقت عليها التحية، وهمت بالجلوس، إلا أن السيدة نازك بادرتها بأنهما على موعدٍ

في مكانٍ قريبٍ. وفعلاً وجدت ميرا نفسها - بعد دقائق عدة - في مكتبٍ، كانت تتخيل أن صاحبه هو العريس المنتظر، لكنَّ وقعَ المفاجأة كان كبيرًا؛ فهي تجلس في مكتب زواج وتخديم؛ إذ صدمتُها كانت أكبرَ من أيِّ كلام، ساد الصمت طوال دقائق الانتظار؛ حتى سمعت اسمها تنادِيه فتاةٌ في أوائل العشرين؛ لتجرَّها السيدة نازك بسرعة البرق، وتسُوقَها كما يُساق البعير إلى الذبح. لكن لا مفرّ! وبدأت الفتاة الشابة كلامها بأن طلبها موجود، وأنها لن تخرج إلّا وفي يدها عريس، ولا سيّما أنّ السّن (مش باين عليها)، وتتمتع بقوام ومظهر جميلٍ، تمنّت أن تبتلعها الأرض. ولم ينتظر أحدٌ ردَّ ميرا، وباغتتها بمجموعةٍ من الصور، وبدأت الفتاة في السرد والتوضيح:

الأول___ رجل في الخامسة والستين بالمعاش. تُوفيتْ زوجته، ولديه أبناء متزوجون.

الثاني___ رجل في الخامسة والأربعين، مطل، رجل أعمال، ومعه ابنته ذاتُ الخَمْسِ سنواتٍ.

الثالث___ في الثانية والثلاثين، يعمل بمركزٍ مرموقٍ، ولا يعارض في فارق السن، بشرط وجود الشقة والسيارة.

الرابع – وهو في رأيها الأنسب، والذي لن تقاوِمَ فيه – سنُّه اثنان وأربعون، ويعمل بسفارةٍ، مطلق، وليس لديه أبناء.

إيه رأيك؟ من منهم ستختارين ؟

ردت السيدة نازك بأن جميعهم أكثر من رائعين، واستدارت بنصف جسدها نحو ميرا، وعلي وجهها علامات استفهام من منهم ستختارين؟

استجمعت ميرا قواها، ولملمت أشلاء نفسها، وغادرت في هدوء غير عابئة بما وراءها، كفراشة حمقاء؛ عانقت الضوء فاحترقت. عادت إلى فراشها؛ تجرّ أذيال خيبتها تحدّق في سقف غرفتها، لتجد كرامتها تُحَلِّق فيه. استرخت، وراحت في سُباتٍ عميقٍ.

obeikandl.com